سورة نوح

مكيه وآياتها ثمانى وعشرون آية

بين يدي السورة

* سورة نوح مكية ، شأنها شأن سائر السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة ، وتثبيت قواعد الإيمان ، وقد تناولت السورة تفصيلا قصة شيخ الأنبياء (نوح عليه السلام) من بدء دعوته حتى نهاية (حادثة الطوفان) التى أغرق الله بها المكذبين من قومه ، ولهذا سميت " سورة نوح " ، وفي السورة بيان لسنة الله تعالى في الأمم التي انحرفت عن دعوة الله ، وبيان لعاقبة المرسلين ، وعاقبة المجرمين ، في شتى العصور والأزمان .

* ابتدأت السورة الكريمة بارسال الله تعالى لنوح عليه السلام ، وتكليفه بتبليغ الدعوة ، وإنذار قومه من عذاب الله [إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم] الآيات .

* ثم ذكرت السورة جهاد نوح عليه السلام ، وصبره ، وتضحيته في سبيل تبليغ الدعوة ، فقد دعا قومه ليلا ونهارا ، وسرا وجهارا ، فلم يزدهم ذلك إلا إمعانا في الضلال والعصيان [قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا] . الآيات

* ثم تتابعت السورة تذكرهم بإنعام الله وأفضاله على لسان نوح عليه السلام ، ليجدوا فى طاعة الله ، ويروا آثار قدرته ورحمته في هذا الكون الفسيح [ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا] ! ! . ومع كل هذا التذكير والنصح والإرشاد ، فقد تمادى قومه فى الكفر والضلال والعناد ، واستخفوا بدعوة نبيهم (نوح) عليه السلام ، حتى أهلكهم الله بالطوفان [قال نوح رب أنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ومكروا مكرا كبارا وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا . .] الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بدعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك والدمار ، بعد أن مكث فيهم تسعمائة وخمسين سنة ، يدعوهم إلى الله ، فما لانت قلوبهم ، ولا انتفعت بالتذكير والإنذار [وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا رب اغفر لي ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا ، وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين إلا تبارا] .

قال الله تعالى : [إنا أرسلنا نوحا إلى قومه . .] إلى قوله [ولا نزد الظالمين إلا تبارا] . من آية (1) إلى آية (28) نهاية السورة الكريمة .

اللغة :

[استغشوا] غطوا ، يقال : غشاه أي غطاه ، والغشاء الغطاء

[مدرارا] غزيرا .متتابعا

[أطوارا] أحوالا مختلفة طورا بعد طور ، قال الشاعر : " والمرء يخلق طورا بعد أطوار ،

[فجاجا] واسعات جمع فج وهو الطريق الواسعة

[كبارا] كبيرا بالغ الغاية في الكبر

[ديارا] أحدا يدور أو يتحرك على ظهر الأرض

[تبارا] هلاكا ودمارا .

التفسير :

[إنا أرسلنا نوحا إلى قومه] أي نحن بعظمتنا وجلالنا بعثنا شيخ الأنبياء (نوحا عليه السلام) إلى سكان جزيرة العرب ، قال الألوسي : واشتهر أنه عليه السلام كان يسكن أرض الكوفة وهناك أرسل

[أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم] أي بأن خوف قومك ، وحذرهم إن لم يؤمنوا ، من عذاب شديد مؤلم ، وهو عذاب الطوفان فى الدنيا ، وعذاب النار في الآخرة

[قال يا قوم إني لكم نذير مبين] أي فدعاهم إلى الله وقال لهم : إني لكم منذر ، موضح لحقيقة الأمر ، أنذركم وأخوفكم عذاب الله ، فأمري واضح ودعوتي ظاهرة ، قال المفسرون : نوح عليه السلام أول نبى أرسل ، ويقال له : شيخ المرسلين ، لأنه أطولهم عمرا فقد مكث في قومه كما قص القرآن الكريم [ألف سنة إلا خمسين عاما] يدعوهم إلى الله ، ومع طول هذه المدة لم يؤمن معه إلا قليل ، وقد أفرد القرآن قصته في هذه السورة الكريمة التى تسمى " سورة نوح " من بدء الدعوة إلى نهايتها ، حيث أهلك الله قومه بالطوفان ، وهو أحد الرسل الكبار من أولي العزم وهم خمسة (نوح ، إبراهيم ، موسى ، عيسى ، محمد) صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وقد شاع الكفر في زمانه وذاع ، واشتهر قومه بعبادة الأوثان ، وأكثروا من البغى والظلم والعصيان ، فبعث الله لهم نوحا عليه السلام ، وكان من خبرهم مع نبيهم ما قصه الله علينا في القرآن

[أن أعبدوا الله واتقوه وأطيعون] أي فقال لهم : اعبدوا الله وحده ، واتركوا محارمه ، واجتنبوا مآثمه ، وأطيعونى فيما أمرتكم به من طاعة الله ، وترك عبادة الأوثان والأصنام

[يغفر لكم من ذنوبكم] أي إنكم إن فعلتم ما أمرتكم به ، يمحو الله عنكم ذنوبكم التى اقترفتموها ، وإنما قال [من ذنوبكم] أي بعض ذنوبكم التى حصلت قبل الإسلام ، لأن الإيمان يجب ما قبله من الذنوب ، لا ما بعده ((هذا ما رجحه أبو حيان في البحر ، واختار الطبري أن " من " ليست للتبعيض وإنما هي بمعنى " عن " أي يغفر لكم عن ذنوبكم بمعنى يغفر لكم جميع الذنوب ، والأول أرجح ، لأن " من " فى الأصل للتبعيض ، فلا حاجة إلى صرفها عن الأصل ، والله أعلم)).

[ويؤخركم إلى أجل مسمى] أي ويمد في أعماركم إن أطعتم ربكم ، إلى وقت مقدر ومقرر فى علم الله تعالى ، مع التمتع بالحياة السعيدة ، والعيش الرغيد ، قال المفسرون : المراد بتأخير

الأجل هو التأخير بلا عذاب ، أي يمهلهم في الدنيا بدون عذاب إلى انتهاء آجالهم ، وأما العمر فهو محدود لا يتقدم ولا يتأخر [فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون] ولهذا قال بعده

[إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر] أي إن عمر الإنسان عند الله محدود ، لا يزيد ولا ينقص ، وإنما أضيف الأجل إلى الله سبحانه ، لأنه هو الذي كتبه واثبته

[لو كنتم تعلمون] أي لو كنتم تعلمون ذلك لسارعتم إلى الإيمان

[قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا] أي قال نوح بعد أن بذل غاية الجهد ، وضاقت عليه الحيل : يا رب إني دعوت قومي إلى الإيمان والطاعة ، فى الليل والنهار ، من غير فتور ولا توان

[فلم يزدهم دعاءي إلا فرارا] أي فلم يزدهم دعائى لهم إلى الإيمان ، إلا هربا ، وشرودا عن الحق ، وإعراضا عنه . . ثم وصف نفورهم وصور إعراضهم أبلغ تصوير فقال

[وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم] أي كلما دعوتهم إلى الإقرار بوحدانية الله ، والعمل بطاعته ، ليكون سببا في مغفرة ذنوبهم ، قال فى التسهيل : ذكر المغفرة التي هى سبب عن الإيمان ، ليظهر قبح إعراضهم عنه ، فإنهم أعرضوا عن سعادتهم

[جعلوا أصابعهم فى آذانهم] أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا دعوتى

[واستغشوا ثيابهم] أي غطوا رءوسهم ووجوهم بثيابهم ، لئلا يسمعوا كلامي أو يروني ، قال في البحر : والظاهر أن ذلك حقيقة ، سدوا مسامعهم حتى لا يسمعوا ما دعاهم إليه ، وتغطوا بثيابهم حتى لا ينظروا إليه ، كراهة وبغضا من سماع النصح ورؤية الناصح ، ويجوز أن يكون ذلك (كناية) عن المبالغة فى إعراضهم عما دعاهم إليه ، فهم بمنزلة من سد سمعه ، ومنع بصره

[وأصروا واستكبروا استكبارا] أي واستمروا على الكفر والطغيان ، واستكبروا عن الإيمان استكبارا عظيما ، وفيه إشارة إلى فرط عنادهم ، وغلوهم في الضلال

[ثم إنى دعوتهم جهارا] أي دعوتهم علنا على رءوس الأشهاد ، مجاهرا بدعوتى لهم دون خوف أو تحفظ

[ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا] أي أخبرتهم سرا وعلنا ، خفية وجهرا ، وسلكت معهم كل طريق في الدعوة إليك ، قال المفسرون : والعطف بثم يشعر بأن الإعلان والإسرار الأخيرين ، كانا طريقة ثالثة سلكها نوح في الدعوة ، غير طريقة السر المحضة ، وغير طريقة الجهر المحضة ، فكان فى الطريقة الثالثة يعلن لهم الدعوة مرة حيث يصلح الإعلان ، ويسرها لهم أخرى ، حيث يتوقع نفع الإسرار ، ثم وضح ما وعظهم به سرا وعلانية ، فقال

[فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا] أي آمنوا بالله وتوبوا عن الكفر والمعاصى ، فإن ربكم تواب رحيم ، يغفر الذنب ويقبل التوب

[يرسل السماء عليكم مدرارا] أي ينزل المطر عليكم غزيرا متتابعا ، شديد الانسكاب

[ويمددكم بأموال وبنين] أي يكثر أموالكم وأولادكم

[ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا] أي ويجعل لكم الحدائق الفسيحة ، ذات الأشجار المظلة المثمرة ، ويجعل لكم الأنهار تجري خلالها . . أطمعهم نوح عليه السلام بالحصول على بركات السماء وبركات الأرض ، إن هم آمنوا بالله الذي بيده مفاتيح هذه الخزائن ، وأتاهم من طريق القلب لتحريك العواطف ، ولبيان إن ما هم فيه من انحباس الأمطار ، وما حرموه من الرزق والذرية ، إنما سببه كفرهم بالله الذي بيده وحده إرسال المطر ، وإغداق الرزق ، والإمداد بالأموال والبنين ، وأنه لا ينبغى لهم أن يكفروا بهذا الإله القادر ، ويعبدوا آلهة أخرى اخترعوها ، لا تضر ولا تنفع ، ثم عاد فهز نفوسهم هزا ، وعطفها نحو الإيمان بأسلوب آخر من أساليب البيان ، فقال

[ما لكم لا ترجون لله وقارا] أي ما لكم أيها القوم لا تخافون عظمة الله وسلطانه ، ولا

ترهبون له جانبا! ! قال ابن عباس : أي ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته
[وقد خلقكم أطوارا] أي وقد خلقكم فى أطوار مختلفة ، وأدوار متباينة ، طورا نطفة ، وطورا علقة ، وطورا مضغة ، إلى سائر الأحوال العجيبة ، فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم نبههم إلى دلائل القدرة والوحدانية ، منبئة في هذا الكون الفسيح ، فقال سبحانه
[ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا] أي ألم تشاهدوا يا معشر القوم عظمة الله وقدرته ؟ وتنظروا نظر اعتبار ، وتفكر وتدبر ، كيف أن الله العظيم الجليل ، خلق سبع سموات سماء فوق سماء ، متطابقة بعضها فوق بعض ، وهي فى غاية الابداع والإتقان ! ا

[وجعل القمر فيهن نورا] أي وجعل القمر فى السماء الدنيا ، منورا لوجه الأرض في ظلمة الليل ، قال الإمام الفخر : القمر فى السماء الدنيا وليس فى السموات بأسرها ، وهذا كما يقال : السلطان في العراق ، ليس المراد أن ذاته حاصلة في كل أنحائها ، بل إن ذاته فى حيز من جملة أنحاء العراق ، فكذا ههنا وقال فى البحر : والقمر فى السماء الدنيا ، وصح كون السموات ظرفا للقمر ، لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأ المظروف ، تقول زيد فى المدينة وهو فى جزء منها ((أقول : ليس ثمة نص صريح على أن القمر داخل السموات إلا هذا النص وقد عرفت تأويله ، وإذا كان القمر أقرب الكواكب الى الأرض ، وثبت بالنص القاطع أن الله تعالى جعل الكواكب زينة للسماء ، وجعلها فى السماء الدنيا {ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح } فإنه لا يستبعد أن يصل الناس إلى القمر ، لأنه دون السماء الأولى ، كما وصلت إليه المركبة الفضائية في زماننا ، وكما أثبت العلم الحديث إمكان ذلك ، فليس ثمة محظور ديني على وصول الإنسان لبعض الكواكب ، وأما الوصول الى السماء واختراقها فذلك أمر مستحيل ودونه خرط القتاد ، لأن الله تعالى يقول : {وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها

معرضون } وفي عصرنا هذا تم وصول البشر إلى القمر ، ولا مانع منه شرعا كما ذكرنا ، لقرب القمر من الأرض ، وما مثلهم الا كمثل الذي صعد إلى المأذنة ، كم اقترب من السماء ؟)).

[وجعل الشمس سراجا] أي وجعل الشمس مصباحا مضيئا يستضيء به أهل الدنيا كما يستضيء الناس بالسراج فى بيوتهم ، ولما كان نور الشمس أشد ، وأتم ، وأكمل ، فى الانتفاع من نور القمر ، عبر عن الشمس بالسراج لأنه يضيء بنفسه ، وعبر عن القمر بالنور لأنه يستمد نوره من غيره ، ويؤيده ما تقرر في علم الفلك من أن نور الشمس ذاتي فيها ، ونور القمر عرضي مكتسب من نورها ، فسبحان من أحاط بكل شيء علما

[والله أنبتكم من الأرض نباتا] بعد أن ذكر دليل الآفاق ، ذكر هنا دليل الأنفس ، وذلك لأن في ذكر هذه الأمور ، دلالة واضحة على عظمة الله ، وقدرته وباهر مصنوعاته ، والمعنى : خلقكم وأنشأكم من الأرض كما يخرج النبات ، وسلكم من تراب الأرض كما يسلك النبات منها ، قال المفسرون : لما كان إخراجهم وإنشاؤهم إنما يتم بتناولهم عناصر الغذاء الحيوانية والنباتية المستمدة من الأرض ، كانوا من هذه الجهة مشابهين للنباتات التى تنمو بامتصاص غذائها من الأرض ، فلذا سمى خلقهم وإنشاءهم انباتا ، أو يكون ذلك إشارة إلى خلق آدم حيث خلق من تراب الأرض ، ثم جاءت منه ذريته ، فصح نسبتهم إلى أنهم أنبتوا من الأرض

[ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا] أي يرجعكم إلى الأرض بعد موتكم فتدفنون فيها ، ثم يخرجكم منها يوم البعث والحشر للحساب والجزاء ، وأكده بالمصدر [إخراجا] لبيان أن ذلك واقع لا محالة ، وهذه الآية كقوله تعالى [منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى]

[والله جعل لكم الأرض بساطا] أي جعلها فسيحة ممتدة ممهدة لكم ، تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه ، قال فى التسهيل : شبه الأرض بالبساط فى امتدادها واستقرار الناس عليها ، وأخذ بعضهم من الآية أنها غير كروية ، وفي ذلك نظر ، فإن كرويتها أمر

مقطوع به ، وقال الألوسي : وليس فى الآية دلالة على أن الأرض مبسوطة غير كروية ، لأن الكرة العظيمة يرى كل من عليها ما يليه مسطحا ، ثم إن اعتقاد الكروية أو عدمها ليس بلازم في الشريعة ، لكن كرويتها كالأمر اليقينى ، ومعنى جعلها بساطا أي تتقلبون عليها كالبساط

[لتسلكوا منها سبلا فجاجا] أي لتسلكوا في الأرض طرقا واسعة فى أسفاركم ، وتنقلكم فى أرجائها . . ولما أصروا على العصيان ، وقابلوه بأقبح الأقوال والأفعال ، حكى تعالى عنهم ما قصه القرآن

[قال نوح رب إنهم عصونى] أي إنهم بالغوا في تكذيبى وعصيان أمري

[واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا] أي واتبعوا أغنيائهم ورؤساءهم ، الذين أبطرتهم الأموال والأولاد ، فهلكوا وخسروا سعادة الدارين ، فصاروا إسوة لهم فى الخسار

[ومكروا مكرا كبارا] أي ومكر بهم الرؤساء مكرا عظيما متناهيا في الكبر ، قال الألوسي : [وكبارا] مبالغة فى الكبر اي كبيرا فى الغاية ، وذلك احتيالهم في الدين ، وصدهم الناس عنه ، وإغراؤهم وتحريضهم على أذية نوح عليه السلام ،

[وقالوا لا تذرن آلهتكم] أي لا تتركوا عبادة الأوثان والأصنام ، وتعبدوا رب نوح

[ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا] أي ولا تتركوا – على وجه الخصوص – هذه الأصنام الخمسة – " ودا ، وسواعا ، ويغوث ، ويعوق ، ونسرا) قال الصاوي : وهذه أسماء أصنام كانوا يعبدونها ، وكانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم ، ولذا خصوها بالذكر ، وهذا من شدة كفرهم ، وفرط تعنتهم فى المكر والاحتيال ، فقد كانوا يلبسون ثوب الناصح المخلص ، ويسلكون فى تثبيت الضعفاء على عبادة الآباء ، شتى الأساليب في المكر والخداع

[وقد أضلوا كثيرا] أي وقد أضل كبراؤهم خلقا وناسا كثيرين ، بما زينوا لهما من طرق الغواية

والضلال ، ثم دعا عليهم نوح عليه السلام بالضلال ، فقال

[ولا تزد الظالمين إلا ضلالا] أي ولا تزدهم يا رب على طغيانهم وعدوانهم ، إلا ضلالا فوق ضلالهم ، قال المفسرون : دعا عليهم لما يئس من إيمانهم ، باخبار الله له بقوله [لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن] فاستجاب الله دعاءه وأغرقهم ، ولهذا قال تعالى

[مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا] أي من أجل ذنوبهم وإجرامهم ، وإصرارهم على الكفر والطغيان ، أغرقوا بالطوفان وأدخلوا النيران ، قال في التسهيل : وهذا من كلام الله تعالى إخبارا عن أمرهم ، و[ما] فى [مما] زائدة للتأكيد ، وإنما قدم هذا المجرور للتأكيد أيضا ، ليبين أن إغراقهم وإدخالهم النار ، إنما كان بسبب خطاياهم ، وهى الكفر وسائر المعاصى

[فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا] أي لم يجدوا من ينصرهم أو يدفع عنهم عذاب الله ، قال أبو السعود : وفيه تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله تعالى ، وأنها غير قادرة على نصرهم ، وتهكم بهم

[وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا] أي لا تترك أحدا على وجه الأرض من الكافرين ، قال فى التسهيل : و[ديار] من الأسماء المستعملة في النفى العام ، يقال : ما فى الدار ديار ، أي ما فيها أحد . . ثم علل ذلك بقوله

[إنك إن تذرهم يضلوا عبادك] أي إنك إن أبقيت منهم أحدا ، أضلوا عبادك عن طريق الهدى

[ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا] أي ولا يأتى من أصلابهم إلا كل فاجر وكافر ، قال الإمام الفخر : فإن قيل : كيف عرف نوح ذلك ؟ قلنا : بالاستقراء ، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، فعرف طباعهم وجربهم ، وكان الرجل ينطلق بابنه إليه ويقول : يا بنى احذر هذا فإنه كذاب ، وإن أبى أوصانى بمثل هذه الوصية ، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك ، فلذلك قال [ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا] . . ولما دعا نوح على الكفار ، أعقبه بالدعاء

للمؤمنين الأبرار ، فقال

[رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات] بدأ بنفسه ثم بأبويه ، ثم عمم لجميع المؤمنين والمؤمنات ، ليكون ذلك أبلغ وأجمع

[ولا تزد الظالمين إلا تبارا] أي ولا تزد يا رب من جحد بآياتك ، وكذب رسلك ، إلا هلاكا وخسارا في الدنيا والآخرة ، والتبار : هو الخسران المحقق ، والهلاك والدمار .

البلاغة :

تضمنت السورة الكريمة وجوها من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

1 – الطباق بين [أعلنت . . وأصررت] وبين [جهارا . . وإسرارا] وبين [ليلا . . ونهارا] وبين [يعيدكم . . ويخرجكم] .

2 – المجاز المرسل [جعلوا أصابعهم في آذانهم] المراد رءوس الأصابع فهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء .

3 – الاستعارة التبعية [والله أنبتكم من الأرض نباتا] شبه إنشاءهم وخلقهم فى أدوار ، بالنبات الذى تخرجه الأرض ، واشتق من لفظ النبات أنبتكم على طريق الاستعارة التبعية .

4 – ذكر المصدر للتأكيد مثل [ويخرجكم إخراجا] و[أسررت لهم إسرارا] و[استكبروا استكبارا] ويسمى هذا في علم البديع بالإطناب .

5 – ذكر الخاص بعد العام [وقالوا لا تذرن ألهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا . .] الآية وعكسه ذكر العام بعد الخاص [رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات] وكلاهما من باب الإطناب ، وهو من المحسنات البديعية .

6 – السجع المرصع مراعاة لرءوس الآيات مثل [مدرارا ، أنهارا ، وقارا ، أطوارا] إلخ .

فائدة :

استدل العلماء على عذاب القبر بقوله تعالى [مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا] قالوا : المراد بها نار القبر وعذابه ، لأنه تعالى عطف بالفاء ، والفاء تفيد الترتيب مع التعقيب ، ونار الآخرة لم يذوقوها بعد ، فدل على أن المراد بها (عذاب القبر) ، وهو استدلال لطيف ، والله الهادي إلى سواء السبيل .